

جمالية البناء السردى في رواية "الخابية" لجميلة طلباوي
**The aesthetic of narrative construction in the novel "Al
 Khabia" by Jamila Talabawi**

د. بهليل فضيلة¹

Dr/ Behilil Fadila

المركز الجامعي احمد صالحى-النعامة الجزائر

Ahmed Salehi University Center – Naama Algeria

fadilabehilil@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/06/02

تاريخ القبول: 2020/05/04

تاريخ الاستلام: 2019/04/09

ملخص:

من الروايات التي تشغل على المكان كتبت لنا الروائية جميلة طلباوي " الخابية"، وهي رواية تتخذ من البناء المعماري الصحراوي موضوعا رئيسيا له، تجوب بنا أزقة القصر وبنائات الطوب التي طبعت الصحراء، في محاولة منها إعادة تلك التصاميم القديمة، بناء معماري يناسب رجل الصحراء بعد أن خنقته المدن والعمارات التي لا تناسب تفكيره ونمط عيشه.

يتبنى المهندس فاتح مشروع بناء القصور ليعيده من جديد، وتشاركه فيه زوجته سارة، غير أنهما يصطدمان بالحقيقة، حقيقة أن لا أحد صار يرغب في العودة إلى القصور وإلى نمط العيش فيها. هي معاناة نقلتها لنا الروائية جميلة طلباوي بأسلوب سردي شيق عكس الصراعات النفسية

الداخلية والصراعات الخارجية المحيطة بالشخصيات، مؤثثة روايتها بالكثير من مظاهر البيئة الصحراوية بما في ذلك العادات والتقاليد وبكل ما له صلة بالتراث الصحراوي. **الكلمات المفتاح:** الخابية- البناء الصحراوي - التراث- التقاليد- الهوية- دلالة المكان- صراع الشخصيات-الإيديولوجيا- المجتمع الصحراوي- توظيف العامية.

abstract:

From the novels that work on the place, the novelist Jamila Talabawi wrote to us "Al Khabiya", which is a novel that takes from the desert architectural building a major topic for him, roaming the alleys of the palace and the brick buildings that printed the desert, in an attempt to restore those ancient designs, building an architectural fitting the desert man after He suffocated cities and buildings that do not fit his thinking and lifestyle.

The engineer, Fatih, is adopting the project of building palaces to bring him back, and his wife Sarah shares it, but they collide with the truth, the fact that no one wants to return to the palaces and the way of living in them. It is a suffering conveyed to us by the beautiful novelist Jamila Talabawi in an interesting narrative style that reflects the internal psychological conflicts and the external conflicts surrounding the characters. Her story is furnished with many aspects of the desert environment, including customs and traditions and everything related to the desert heritage.

Key words:

Khabiya - desert construction - heritage - traditions - identity - the significance of the place - the struggle of personalities - ideology - desert society - employment of slang.

مقدمة:

أن تشدك رواية لقراءتها بشغف فذلك أمر يحدث، لكن أن تجد نفسك تائها داخل رواية، تجوب الأماكن رفقة راويها، تقتفي آثار أبطالها الذين ما عدت تؤمن أنهم مجرد شخصيات وهمية من ورق، فذلك لا يتأتى إلا لرواية مفعمة بالسحر، سحر السرد البسيط الجذاب، سحر الأماكن التي أثنتها لنا الكاتبة بمزيج من طين وماء ونخل، فننتعل الفضول ونمشي بصمت على الرمال نفتفي أثر أناس عبروا هذا القصر أو ذاك فملأت أرواحهم وأهازيجهم المكان صفاء وفرحا ذات زمن، رحلت بهجته وظلت فرحة العودة إليه تشد البطل فاتح، ورحنا نحن بكل وفاء نتابع معه مشروع القصر والخابية.

فاتح ابن الصحراء، ابن القصر والرمل يطارد حلمه الذي ظل هاجسا يقف بطريقه فلا يمكنه تجاوزه أو التغاضي عنه، يحاول بكل ما أوتي من صبر وإيمان بمشروعه أن يبحث عن من يؤيد معه فكرة إعادة بناء القصر القديم، وتصميم منازل على مقاس الصحراء، لا على شاكلة عمارات ظلت تطارد أصالة المدن الصحراوية فتجعل منها بناءً هجيناً لا يمنح المدينة أية معالم أو هوية.

فاتح المهندس المتفوق يحمل مشروعه بقلبه في اجتهاد يصنع التصميم الخاص بالقصور ويقدمه لمديره في العمل المدعو "شريف" والذي لم يكن شريفاً أبداً، فقد قابل هذا الأخير مشروع فاتح بالرفض، ولا عجب ألا يهتم رجل مثله بهذا المشروع، لاسيما وأنه شخص جشع محب للرشوة، لا يهمله سقوط البناءات على سكانها بقدر ما يهمله كم ستدرّه تلك الصفقة من أرباح، مشروع فاتح بالنسبة له لا ربح ولا فائدة ترجى منه "قالها شريف، ومنذ يومين فقط رفض المدير تصميمي للقصر وقال: نحن تحضرنا وسكننا المدن وأنت تريد أن

تعيدنا إلى القرون الماضية، تريدنا أن نتخلف، أن نعود إلى قصور الطوب¹، شخص كشريف لا يؤمن بغير الصفقات والرشوة "لم يقتنع بعد بأن هنالك من يرفض الرشوة، لم يتقبل بعد رفضي الإمضاء على تصميم وترخيص بناء يمكنه أن يحدث كارثة في المدينة. لا يهمه أن يتورط مع مقاول مجرم وأن تتهاوى المساكن على رأس أكثر من مائة شخص، يهم المقاول أن تتناول عمارته، ويحرص شريف على قبض المال"².

لم يكن فاتح ليتوقف عند قرار مديره، بل توجه إلى رئيس جمعية تعنى بالتراث طمعا في أن يجد من يساند فكرته التي تحولت إلى مشروع حياة، ليفاجئه هذا الأخير بأنه لا يختلف عن مديره في الرأي، وأنه يرى بأن القصر قد تجاوزه الزمان ولم يعد مكانا صالحا لهذا العصر كما ورد على لسان فاتح: "كلام محفوظ أحسسته كالإبر تغرز في قلبي وهو يصدمني بأنه والسكان الذين خرجوا من القصر لا يمكنهم العودة إليه. يعتقدون بأن الزمن تجاوزه وبات من حقهم الحصول على شقق في عمارات"³، ليتأكد فاتح بعد ذلك أن مشكلته "لم تعد مع الإدارة فحسب، بل مع السكان الذين يريدون عمارة بلامح أخرى، ثمة مشكلة حدثت مع الذاكرة"⁴، "كل الهيئات التي اتصلت بها كي أتعاون معها في حل أزمة السكن أبلغتني رفض المواطنين لفكرتي التي يرون بأن الزمن تجاوزها. تأكدت بأن المشكلة لم تعد مع القصر أو السور، هي مشكلة داء جماعي تمكن من الذاكرة وأحدث فيها ثقبا عميقا أفرغ كثيرا من صوت الأجداد فينا"⁵.

غير أن وجود سارة في حياته بعد ذلك غير الكثير، منذ قدومها إلى المؤسسة وعملها معا، كانت النور الذي بعث في ظلمته الحياة، قال عنها: "سارة أضاءت حياتي، جعلت لمذاق أيامي طعما آخر محملا بإكسير العزيمة من أجل الوصول لهدفي. أصبحت شريكتي في مشروع بناء تجمعات سكنية على شكل قصر تضم مرافق تبت روح الجماعة والتعاون بين ساكنيها. أشركتها في رحلة البحث إلى القصور لمعرفة أسرارها"⁶.

صوت آخر ينضم إلى صوتي فاتح وسارة في مشروع القصر، كان صوت العم عاشور الذي أصبح يحمل هو أيضا ذلك الأمل في إحياء القصر واستعادة مكانته "كنت أود أن أسأل عمي عاشور عن سبب تواجده في هذا المكان، لكنه بادرني بالقول بأنه يصلي هنا ويدعو الله أن يوفقني، فمشروع صار مشروع هو أيضا"⁷، "عمي عاشور هو أيضا ينتظر اليوم الذي يرتفع فيه سور القصر، قلبه يتمزق كلما رأى هذه الأطلال"⁸، "عمي عاشور كان يقول دائما بأننا لو حافظنا على القصور لحافظنا على البركة. لم تعد هنالك بركة لا في الوقت ولا في المال ولا حتى في الأولاد، حتى السور الذي كان يحيط بالقصر هو في اعتقاد عمي عاشور، لم يكن مجرد جدار، بل كان طينه ممزوجا بالحب والتعاون"⁹، فدلالة القصر بالنسبة إليه تجاوزت كونه مجرد مكان إلى معنى روحي يسكنه.

لم تتوقف مساندة العم عاشور عند هذا الحد، بل إنه جمع كل ما كان يرسله له ابنه من نقود، ليرسلها إلى فاتح باسم فاعل خير، ليحقق حلمه وحلم فاتح في بناء القصور وإعادة الحياة فيها.

رائع هو السرد بين يدي الروائية جميلة، يسكننا عوالم من دهشة تشدنا بحبال الحنين؛ حنين للغة إزار خالتي الياقوت وغناسها، حنين لجلسة القميري بقصور لحر، حنين لمردود حار نتذوقه بطعم الذاكرة، أو مخلع معجون خبزه بيد طيبة نقية نقاء ماء ساقية ياحدى تلك القصور، وأما استدرنا هب نسيم من الزمن الجميل الذي عبّته الكاتبة ببخور زهو وفرح لا مثيل له حتى وإن حاولت المدينة دفنه أو تغييب جزء كبير منه.

الكاتب الحقيقي هو ذلك الذي يجعلك لا تشك في كون الشخصيات خيالية، بل تصدق وجودها فعلا وتتفاعل معها، ثم تتمنى في الأخير ألا تنتهي الرواية. جميلة صنعت شخصياتها بدقة، رسمت كل التفاصيل في ملاحظهم التي زينتها البيئة الصحراوية فاتسمت السمرة بوجوههم والصبر والجلد بطباعهم، جميلة استحقت عن جدارة جائزة السرد أو النصوص الصحراوية، إذ لا تكاد تمر صفحة بالرواية إلا وشمنا بلبل الطين أو عقب شاي بالنعناع، ونفذ لرثة الذاكرة بخور عتيق يعيد لها تنفسه الطبيعي بعيدا عن قرف المدينة وهوائها الذي يصيب بالغثيان.

1- الخاوية، عنوان يختصر هوية وتراثا:

يعكس النص الروائي التصاميم المعمارية الخاصة بالصحراء، جعلتنا الكاتبة نتماهى معها حدّ الشعور بالراحة والأمان ونحن نساغر بين تلك الأزقة تارة و نطل من باب هذا القصر أخرى، نكتشف السور الذي اعتبروه حصنا منيعا بالنسبة للقصر، و"فكرة الحوش الواسع في بيوتنا الكبيرة المفتوحة على السماء. بمساحة كبيرة كنا نسميها عين الدار"¹⁰، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا بأن الروائية نقلت لنا صورة الإنسان الصحراوي من خلال وصفها لهندسة المنازل، بل إن الرواية كلها جعلت من هذا الموضوع نقطة انطلاق للنص ذاته، وعنوانه بجزء (الخاوية) ليبدل على الكل (القصر)، ذلك أن البناء المعماري هو مرآة عاكسة لحضارة الشعوب والمجتمعات، فكانت الخاوية أحد أهم الرموز بالبناء الصحراوي.

يعد العنوان هو المرآة العاكسة لمحتوى النص والمؤشر الذي يحفز القارئ ويدفعه إلى القراءة، ذلك أن العنوان هو أول مؤثر يتلقاه القارئ وكلما كان مختصرا موحيا كلما كان مغريا، عزّفه السيوطي في قوله: "عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوله"¹¹، وهو ركن أساسي للرواية.

"الخاوية"، هكذا أرادت جميلة طلباوي أن يكون عنوان روايتها، ليتساءل القارئ: ما بها هذه الخاوية؟ أو بالأحرى ما الخاوية؟ ولماذا الخاوية؟ فنجد الإجابة على هذا السؤال في

المتن، ونعثر على ما يقرب لنا مفهوم هذا الاسم في الفقرة التالية " في هذا القصر بقايا بيت جدي، وعطر الذي كان من حكايا الماضي .. الخابية كانت أهم أجزائه، ففيها تدخر المؤونة للأيام العصيبة"¹²، فنفهم أن الخابية هي جزء من أجزاء القصر، تستعمل لتخزين المؤونة، ومشروع فاتح كان هو إعادة تصميم وهندسة منازل على شاكلة القصر، قصور تتلاءم والبيئة الصحراوية، جميلة طلباوي وبذكاء رمت للقارئ خيطا من خيوط الرواية "الخابية" ليدرك القارئ فيما بعد أنها لم تكن تقصد بالخابية فقط تلك المساحة التي تستعمل في التخزين وإنما هي أشارت للجزء لتدل على الكل والذي تمثل في القصر، كأنها تود أن تقول بأن الخابية هي التي تحفظ بذكرتها تفاصيل القصر، وأن فاتح لا بد أن تكون له مؤونة وذكريات بذهنه كي يستطيع فهم تصميم القصر.

الخابية، كان عنوانا مناسباً لحقيقة تسكننا بعمق لكن نعجز أن نسكنها لا لشيء سوى لأن الزمن كان أسرع منا فتبعناه محاولين العودة للذاكرة تارة، والهرب منها أخرى. فكان فاتح الذي أراد فتحاً جديداً للبنائيات، فتحاً يحافظ على الماضي وفي الوقت ذاته يواكب الحاضر، يقول للمهندسة سارة قبل أن تصبح زوجته وسنده بالمشروع: " فكرت في استثمار فكرة القصر لبناء تجمعات سكنية، فشكل الحي أو المنزل ينعكس على سلوك الإنسان، لعلّي أساهم في جمع شتات هذا المجتمع الذي بدأ يتفكك ويفقد ملامحه، كما أن كلفة السكن ستصير أقل مما هي عليه الآن"¹³.

الخابية كانت أيضاً رغبة فاتح في ترك مخطوط في زوايا القصر، قال عنه: "المخطوط أردته من نوع خاص جدا، دفترًا سميت الخابية، وضعته في درج مكتبي أدون فيه تأملاتي في هذه الحياة. أخبئ أحفره في ظلام الحبر لعلّي أقبض على النور"¹⁴.

2- شخصيات في صراع بحثا عن الذات والهوية:

أ- فاتح البطل:

بطل الرواية وراوي أحداثها، ذكر اسمه لأول مرة في الصفحة العشرين، ليأتي ذكر اسمه كاملاً في الصفحة السابعة والتسعين "أنا المهندس فاتح قابدي"، وكأنما الروائية حاولت أن تجعل لاسمه حضوراً ثقيلاً وهو يعرف بنفسه لحارس الجمعية التي أنشأها ابنة خالته جوهر، خاصة وأنه لقب والده الشهيد.

من البداية نلتقي مع الراوي فاتح من الصفحة الأولى أين ترسم لنا الروائية بعضاً من ملامحه، فتلبسه وجه القضية التي تريد أن يحدثنا عنها فاتح فيما بعد، عند أول وصف له في قولها على لسان فاتح " كنت أجز الخطى مثقلاً بشيء لا مرئي، عبرت شارع العقيد لطفي، توقفت طويلاً في شارع الزاوي دياب وقد قذفني إلى المكان لحظة تيه سأحدثكم عنها لاحقاً"¹⁵، فنذكر من الوهلة الأولى أن هذه الشخصية مثقلة بأمر ما، وأن الصفحات المقبلة

للرواية سيتضح لنا ما تعمدت الروائية إخفائه في قولها على لسان البطل دوما "سأحدثكم عنها لاحقا"¹⁶، ومنذ الصفحة الأولى تمهدنا الكاتبة لتقذف بنا إلى عالم المدن الذي يخنفنا ببنائاته وبشوارعه فتمقت كما فاتح ذلك النوع من تصاميم البناء، "عدت إلى بيتي كجندي يعيش حالة استراحة من معركة؛ عدت إلى عمارة لا تنتمي إلي .. صعدت أدراج السلم الموبوء بأكياس البلاستيك وبقايا الأكل، مزبلة مرشوشة على هذا الهيكل الذي يقودنا إلى شققنا"¹⁷، حتى تصوير تلك العمارة اقترن بكلمات وعبارات تعكس مدى ضجر فاتح منها: (السلم الموبوء، أكياس البلاستيك، مزبلة مرشوشة، الهيكل...)، وغيرها، كلها جاءت لتضعنا أمام الصورة المقرفة للعمارات خصوصا إذا أهملت.

فاتح باح لنا عن كل ما ظل يؤرقه، عن مشروعه في بناء مساكن بتصميمات القصور، عن مكونات قلبه، عن علاقته بابنة خالته جوهر التي لم يتزوجها وتزوجها صديقه عيسى، عن ابنته أمل وزوجته المتوفية فريدة، التي لم تكن في نهاية المطاف سوى حبيبة صديقه عيسى. وكان القدر انتقم فتزوج عيسى هو الآخر حبيبة فاتح. عيسى الذي كان في الظاهر صديقا وفي الباطن عدو حاقدا، اعترف هو نفسه بذلك في الفصل الذي تولى فيه مهمة السرد، يقول: "جلست يومها كصنم أحتمي الحريرة التي أعدتها والدتك بالقرطوفة والأعشاب البرية التي أنستني يتمي وأشعرتني بالأمان، وبدل أن أحبك يا فاتح كرهتك.. ولم أستطع أن أحبك يوما، كلما نظرت إليك، نظرت إلى فقري وعوزي وحرمانى"¹⁸، "تمنيث أن أكون طبيبا وحقق حلمي يا فاتح، وطرت سعادة لأنك لم تنافسني الاختيار إذ اخترت الهندسة وأرحتني، واخترت أن أحرق قلبك على جوهر حين بدأت أشعر بأن شيئا تحرك داخلك نحوها"¹⁹.

أمل فاتح لم يتحقق، ظل عالقا بين السماء والأرض، ينتظر أن تهب ريح تحمل معها تلك الغيمة التي تبلل الأرض فتبعث من جديد، مشروع فاتح شبيه بحياته، أكثر شخص تحمس معه للمشروع ووقف إلى جانبه كانت المهندسة سارة زوجته، غير أنهما عجزا عن تحقيقه تماما كما عجزا عن الإنجاب، هو ربط حاولت الروائية من خلاله أن تترك للقارئ نهاية مفتوحة على عدة احتمالات، الأمل ضعيف جدا للإنجاب لكن قدرة الله ورحمته واسعة، قد يمنّ عليهما بالطفل الذي حلما به، كذلك هو مشروع فاتح لم تطو صفحته تماما وإن لاقى اعتراضا من طرف الإدارات والجمعيات بل وحتى السكان. كان هناك أمل آخر تجلى في الأفق، هو أمل مثلثة الشقراء نانسي القادمة من خارج الوطن، لتدرس تصاميم القصر، نقطة أخرى أثارها الكاتبة هنا تجلت في اكتشاف الغربيين لتراثنا وتقديسه أكثر من أهله وذويه الذين هم أولى بذلك منها، وقد أثارَت هذه النقطة أيضا مع شخصيات عدة

كابن عاشور الذي ضاقت به فضاءات الوطن ليهاجر بعيدا بحثا عن ذاته بعد أن تجاهل وطنه قدراته ولم يدعم حلمه وطموحه.

ب- عيسى، الطبيب الذي باع ضميره:

لم يكن عيسى كما تصورناه في بداية القصة الصديق المقرب والأخ والسند لفاتح كما أوهمتنا الكاتبة "عرفته على صديقي الدكتور عيسى"²⁰، "قطع علينا حديثنا صديقي عيسى"²¹، "فضّلت أن أركب سيارة صديقي الدكتور عيسى كنت بحاجة إلى لحظات استرخاء"²²، وفي موضع آخر يقول فاتح سائلا عيسى الذي كان يناديه بصديقي: "تبدو متعبا يا صديقي"²³.

عيسى الذي ما كان يفترق عن صديقه فاتح إلا لحظات العمل، جعلتنا الكاتبة نرسم له بأذهاننا صورة الصديق المقرب وهو يتجول معه، يذهب إليه كلما فرغ من العمل، بل ويسافران معا أيضا لمنزل السي المختار ولأماكن أخرى.

وفي اكتشاف فاتح ترشح عيسى بالصدفة عند السي المختار، خبر كهذا كان يفترض أن يكون صديقه المقرب أول من يعرف، لكن عيسى لم يفعل، وهنا بدأت الهوة تتسع بين الصديقين "تفاجأت وأنا أستمع قرار ترشحه للانتخابات حين سأله سي المختار (...). أحسست بغربة، أحسست بهوة كبيرة بيني وبين عيسى، أفقدتني الرغبة في الحديث"²⁴.

لم يكن فاتح وحده من خاب ظنه في صديقه، جوهر هي الأخرى اكتشفت بعد زواجها منه شخصية أخرى بداخله عكس التي يديها، تقول: "كان عيسى شادا في تصرفاته معي، بل كان مقززاً، لم يتوان بكل وقاحة في الحديث عن تجاربه مع عشيقاته ومع العاهرات"²⁵.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن جوهر تفضح لنا حقيقة المشاعر التي يكنها عيسى لفاتح "من يومها بدأ عيسى يصرح بكرهه لفاتح، سمعته مرة يطلب من أحد الفاسدين أن يسرق ختمه ليستعمله في تزوير صلاحية بناء مغشوش، أراد لفاتح السجن"²⁶، "أدرت كم استغفني ذلك السافل. أخبرني أيضا بأنه حرّض رقية وشريف على سرقة ختم فاتح وتزوير توقيعه لصالح مشاريع سي بلقاسم"²⁷، ليكتشف متأخرا جدا فاتح خيانة صديقه له أو بالأحرى عدوه الذي كان يلبس ثوب الصداقة، وليطعن بأن الشخص الذي مدّ له يد العون يوما، كان نفسه الشخص الذي تأمر عليه وسرق ختمه "الخيانة التي أردتها بسيجارة مارستها عليّ رقية بمكر ونذالة بتحريض من شريف وعيسى كما عرفت بعد ذلك منها وهي نادمة تبكي وتطلب مني السماح وقد وثقت فيها بعدما أخبرتني بأنها تواجه مشكلة في المؤسسة، رحبت بها وقمت بتوظيفها في مكنتي الخاص بالدراسات. سرقت ختمي من المكتب وزورت إمضائي ليحقق بلقاسم مشروعه (...). يوم أبلغت الشرطة عن

سرقة ختمي لم أكن أعلم أن وراء اللعبة عيسى وشريف ورقية هي الجانية²⁸، وبالتالي عيسى كان الشخصية الشريرة التي تلعب دور الضحية وتمثل الصداقة فيخدع الجميع بما في ذلك صديق عمره، وزوجته جوهر بعد ذلك.

ج- جوهر، من بقايا طيبة القصر:

اختارت الروائية اسم جوهر لما يعكسه من نفيس وصفاء، وجوهر الشيء هو كل ما يستخلص منه شيء صاف نفي، فكانت تلك الشخصية صافية السريرة، وكان اسم جوهر مناسباً لها لما اشتملت عليه من خصال محبة وصدق.

ولعلنا لا ننكر سعي "الروائي وهو يضع الأسماء أن تكون مناسبة ومنسجمة بحيث تحقق للنص مقروئته وللشخصية احتماليتها ووجودها، ومن مصدر ذلك التنوع والاختلاف الذي يطبع أسماء الشخصيات الروائية"²⁹، وقد ضمنت الكاتبة هذه الشخصيات صفات تتناسب مع معناها، لتكون من سلالة الطين والقصور الذي تعكس الطيبة والنقاء، كانت تحب فاتح، تسعى دوماً لراحته وتحقيق طلباته من غسل ملابسه، تنظيف غرفته، إعداد أطعمته المفضلة، تقول: "كنت أتفنن في تحضير الأكل لفاتح وأسهر على تلبية كل طلباته. أيام امتحاناته أعد له القهوة، أرتب كتبه، أذكره بلوازم الامتحان، أضبط له منه الساعة.. أنتظر بعد ذلك نتيجة الامتحان بقلق وحيرة، وأنتظره بلهفة لبشرني بنجاحه، فأزغرد و أفرح وأعد له ما يشتهي من الأكل"³⁰.

جوهر التي تربت معه بعد وفاة والدتها وزواج أبيها من امرأة أخرى وكان كل أملها أن يحبها ويتزوجها لتكتمل سعادتها، قال عنها فاتح: "تلك المرأة الشبيهة بالأرض، تعطيك شعوراً بأنك تنتمي إليها، بأنها منبتك، وبعيدا عنها تعصف الريح بجذورك"³¹، غير أن عيسى كان قد سبقه في طلب الزواج بعد أن علم حب فاتح لها. لتبدأ معاناتها معه بدءاً باكتشاف خياناته ثم عفنه السياسي والفساد الذي يملأ حياته من صفقات مشبوهة ونهب لحقوق المستضعفين، تقول جوهر: "كان كلما أخبرني بأنه سيقوم عشاء عمل في البيت إلا وشعرت باختناق شديد لأني أعرف مسبقاً بأن صفقة مشبوهة ستبرم على حساب الفقراء والضعفاء في هذه المدينة"³²، كان زواجها من عيسى أشبه بموت بطيء قتل فيها كل جميل لولا تلك الجمعية التي أسستها واختارت لها حياً شعبياً، جعلتها تنشط وتبقى واقفة رغم التواءات التي بدت على روحها ورغم الحيات التي خلفها عيسى.

تكتشف جوهر متأخرة أنها ما عادت جوهر وأنها تغيرت كثيراً حتى وهي تكتشف حملها ويخيبها زوجها مغادراً تلك السهرة التي أرادت لها للاحتفال معه بخبر المولود بينما هب مسرعاً ليخبر فاتح كيما يحرق قلبه فقط "تهاويت لحظتها على الأرض، خارت قواي لم أستطع أن أستوعب ماذا حدث، وماذا يعني أن يخبر فاتح بهذا الخبر الذي يحصنا أنا وهو

وفي مثل هذا الوقت، ما معنى أن يغادر البيت، كان من الممكن أن يخبره عن طريق الهاتف؟ كل هذه الأسئلة أعادت إلي جوهر الميثة، خنقت شيئا داخلي³³.

الرواية وهي تعرض شخصياتها بعمق، تكشف لنا عما يمكن للإنسان أن يظهره ويخفيه من مشاعر، وكيف يتقمص شخصية ما من أجل الدفاع عن نفسه، بل كيف يستطيع أن يعيش بوجهين متناقضين، كعيسى الذي يظهر محبة وصدقة فاتح بينما يخفي حقه عليه وكرهه له، ثم جوهر التي تتحامل على نفسها وتدفن مشاعرها بعدما خاب ظنها في زوجها عيسى. كل تلك الاضطرابات النفسية لم تغفلها الكاتبة وهي تقدم شخصياتها، وهو الأمر الذي يميز "الشخصية الروائية على وجه العموم بكونها ذات محتوى سيكولوجي خصب ومعقد معا، فهي تحبل بالتوترات والانفعالات النفسية التي تغذيها دوافع داخلية نلمس أثرها فيما تمارسه من سلوك وما تقوم به من أفعال"³⁴.

3- انعكاسات البيئة الصحراوية على مستوى اللغة:

يقول الفيلسوف الألماني "لينيز" في تعريفه للغة: "إن اللغة هي أصدق مرآة للعقل الإنساني و أن التحليل الدقيق لمعاني الكلمات يمكننا - خيرا من أي شيء وآخر- من فهم عمليات العقل"³⁵، أما اللغة في الرواية فإنها تأخذ أبعادا مختلفة وتظهر جمالياتها على مستويات عدة، بدءا من اللفظ إلى الجملة فالفقرة، وصولا إلى مستوى الملفوظات السردية التي تتداخل بطريقة حوارية مكوّنة بذلك برمج سردية، يقول ميخائيل باختين: "إن تعددية الحالات المقترن بالوصف البروتوكولي للحياة الواقعية يؤدي إلى تعددية البرامج"³⁶.

يقولون: "الشاعر ابن بيئته" وكذلك هو الحال بالنسبة للكاتب، لاشك سيتأثر بالبيئة الذي يعيش فيه ومنه يستقي المواد الأولية لنصه، وجميلة طلباوي في روايتها الخابية عكست هذا التأثير ونقلت أجواء تلك المنطقة بدقة، بدءا بالعنوان "الخابية" والذي يرمز للمنطقة بامتياز وصولا إلى التفاصيل الصغيرة التي تحيط بالشخصيات وبالأمكان والتي عكست البيئة بشكل لافت .

أما البيئة الصحراوية في روايتها فقد تجلت في عدة مظاهر اخترت منها عنصرين رئيسيين تمثلا في: توظيف اللغة العامية المحلية واستعمال الأهازيج الصحراوية التي تخللت المشاهد الروائية، سنحاول الكشف عن بعض منها فيما يلي:

أ- توظيف اللغة العامية المحلية:

اختلف حول مسألة توظيف اللغة العامية من عدمه، فهناك من رأى فيها تقليل من جمالية اللغة الروائية وهناك من رأى عكس ذلك، ولعلنا نتفق مع المؤيدين لهذه التقنية (توظيف العامية) على اعتبار أن نقل بعض المصطلحات و المفاهيم باللغة العامية إنما وظيف لسبب ما، قد يكون الغرض منه هو نقل تلك الشحنة القوية التي تملكها الكلمة داخل السياق

العامي، و قد تفقد قيمتها حين تترجم إلى لغة فصيحة، " و كثيرا ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى وفق ما تقتضيه الظروف الاجتماعية المحيطة بهذا الانتقال: فقد يخصص معناها العام و يقصر على بعض ما يدل عليه، (...) و قد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين، "37 .

وظفت الروائية جميلة العامية المحلية (البشارية) بشكل متناسق بحيث ظلت الكلمات محافظة على أصالتها حتى وهي محلية، وكان توظيفها مناسبا للمقامات التي وردت فيها، من ذلك قولها على لسان والدة فاتح: "دعوة الشر درتها لك في القارو"38، وهو دعاء الأم حين تكره من ابنها تصرفا وتود أن تصرفه عنه جملة وتفصيلا في قولها: "دعوة الشر"، ونحن نعلم مكانة الأم وحبها لابنها، وأنها لن تدعو عليه مهما فعل، لكن حين ترى ابنها يتأذى من أمر ما أو عادة سيئة فإنها تلجأ لمثل هذا القول كتهديد وفي قرارة نفسها تدعو له بالهداية والفلاح، ولو نقلت الروائية جميلة الجملة من العامية إلى الفصحى لأصبحت مثلا: "دعوت عليك إن قمت بتدخين السجائر"، أو غيرها من الجمل التي لا تؤثر في القارئ بقدر الجملة التي نقلتها مباشرة عن العامية، فظلت محتفظة بشحنتها ودلالاتها، ولم تؤثر على سلامة اللغة في الرواية، بل زادت من عمق المعنى وجماله، وعلى لسان الخالة ياقوت: "اتفوه عليهم، عايشين في الوسخ"39، عبارة نقلتها الروائية كما هي في الواقع لتبين مدى سخط الخالة ياقوت وغضبها عند رؤيتها الأوساخ، وعلى لسان القابلة الشعبية أم الخير: "هاد القصر ماعدنا عليه وين (...) هاد الطوبة ماعدنا عليها وين"40، وكذلك في قولها على لسان أم الخير سائلة سارة: "كانش ما جاب ربي؟"، وتقصد بذلك هل أنت حامل؟، فكان أثر العبارة الأولى أبلغ بعاميتها من الفصيحة (هل أنت حامل؟). وقد وفقت الكاتبة إلى حد ما في توظيفها للعامية بشكل لا يجعل حضورها طاغيا على النص أو مرهقا له، بل اقتصر توظيفها على العبارات التي رأت أن معانيها ستتغير بتفصيحتها أو تقل دلالتها على ما هي عليه في الواقع.

ب- الأهازيج الصحراوية:

تخللت الرواية أهازيج صحراوية خاصة بالمنطقة، والأهازيج هي تلك الأغاني الشعبية المتعارف عليها بمجتمع ما عادة تغنى بدون آلات موسيقية، ومن هذه الأهازيج نذكر:

"باش نبدأو ذكر الله يا قوم العيانا

بالصلاة على محمد هكاك بغيت أنا"41

وهي أهزوجة تتردد عند افتتاح الجلسات، فلا تخلو جلسة من ذكرها كما لا يخلو أي تجمع نسائي كان أو رجالي من ذكر الله والصلاة والسلام على حبيبه المصطفى. ومن الأهازيج التي وردت أيضا:

"ما يدوم حال، ما يدوم حال
لو كان الدنيا تدوم، تدوم للي كانوا هنا"⁴²

"شربت من راس العين

مُنين كان الماء زين

وكي تخلطوا ليدين

تخلط الماء والطين"⁴³

وهي أهزوجة عكست مدى تبدل أحوال القصر وكأن صفاء ماء العين قد اختلط بكثرة الأيدي التي امتدت إليه، ولم يدم حال القصر، بل تبدل وغادره أهله إلا القلة القليلة التي بقيت محافظة عليه وعلى قدسيته. ثم تضيف الروائية في مقام آخر أهزوجة ممزوجة بالخرافات والأساطير التي كانت تروى، جاءت عى لسان الخالة أم الخير، بعدما سألت سارة إن كانت حاملا، وردت الأخيرة بدمعة نفي، قالت الخالة أم الخير: "يا عاقد الأمور حلها تجي مزنة وتبللها"، ولتطمئن الخالة أم الخير سارة أردفت تروي تفاصيل هذه الكلمات وهي قصة ملك لم تنجب له زوجته فهددها بالقتل لتنقدها جاريتها وهي تضع ملعقة خشب كبيرة عليها ملامح صبي وهي تردد:

"يا عاقد الأمور حلها

تجي مزنة وتبللها

ليرد الهاتف قائلا:

"يا غنجة يا أم الرجا

اللي عند الله راه جا"⁴⁴

فتتحول الملعقة الخشبية بين يديها إلى صبي، هي حكاية أتبعها أهزوجة كانت مناسبة للمقام بحيث أعادت الأمل لسارة و دعته إلى عدم قطع الأمل فإله قادر عى كل شيء، رد جعلته الروائية ردا ذكيا من الخالة أم الخير بعدما فهمت أن سارة لم تنجب بعد.

ثم أهزوجة أخرى فيها دعاء ورجاء، أوردته الكاتبة في مقام حزن وقلق وخيبة انتابت جوهر وهي ترى وجه زوجها عيسى على حقيقته وبكل عفنه وخياناته، وكأن الروائية أرادت أن تنبهنا إلى أن الحياة لا تكون دائمة كما نريد ونشتهي وأنه علينا أن نتوجه دوما للخالق فله الامر من قبل ومن بعد:

"يا ربي تعفو علينا

قدمنا لك جاه نبينا

لا شمعة ولا قنديل

غير ضوك يا لحنين⁴⁵

هي أهازيج عكست في مجملها البيئة الصحراوية وتفكير الإنسان الصحراوي، امتزجت فيها الحكمة بالدعوة إلى الصبر بالتفأؤل وغيرها مما يمكن لبيئة قاسية أن تخلقه داخل عاطفة ساكنها وتفكيره.

4- حضور التراث الصحراوي في الرواية:

خصت الروائية جميلة جانبا من الرواية استعرضت فيه ما كان من تقاليد المنطقة وتراثها، سواء على مستوى اللباس، أو العادات والتقاليد، أو حتى الأكلات الشعبية وطقوسها، سنحاول استعراض أهمها من خلال النقاط التالية:

5- الأكلات الشعبية للمنطقة:

تعد الأكلات الشعبية من المظاهر التي يتميز بها كل المجتمع عن الآخر، فلكل منطقة أكلاتها المشهورة ولكل منطقة أيضا طريقة خاصة في إعدادها وتقديمها وفق ما تستدعيه الطقوس، ومنطقة الصحراء غنية بتنوع مأكولاتها وطقوسها، تقول الروائية جميلة عن طقوس الشاي الصحراوي وعن أكلة المخلع التي ترافقه: "تحضر بعد ذلك صينية نحاسية دائرية الشكل وضعت فيها كؤوس الشاي في تنسيق جميل، يتوسطها الإبريق وإلى جانبه الكأس الخلاط الذي يوضع فيه النعناع، ولا بد لربيعة الشاي وربيعة السكر أن تأخذا مكانهما في هذا الأوركسترا الشايوي.. تتحرك يد خالتي أم الخير بخفة الشابة العشرينية وهي تصب لنا الشاي، تطلق الأساور الفضية في معصمها الذي وشمته بشكل جميل لجريد النخيل.. أجلس إلى جانب زوجها عمي عاشور الذي يتكئ على مخدة الحملة. نحتسي الشاي ونأكل المخلع.."⁴⁶ فلا يمكن لأكلة المخلع إلا أن يرافقها إبريق الشاي وهو ضروري، لا يستبدل بغيره من المشروبات ولا تحل القهوة محلّه، المخلع يستدعي وجود الشاي عند المجتمع الصحراوي، وهو ما حرصت عليه الروائية وصنعت له جلسة تليق بالمقام أو كما أسمته "الأوركسترا الشايوي".

إلى جانب الشاي والمخلع ذكرت الكاتبة أيضا أكلة شعبية بشارية وهي "المردود" الذي يحضر بالمناسبات وبغيرها، ليأخذ فصل الشتاء الحظ الأوفر لحضوره على غرار باقي الفصول "جلسنا صامتين نتناول المردود الحار الذي تعدّه والدتي بالأعشاب البرية"⁴⁷، وفي موضع آخر ذكر أكلات أخرى كالكسكس والمسمن والبغبرير "وهنّ يزين الأطباق بالكسكسي والمسمن والبغبرير"⁴⁸.

هذا السرد للتفاصيل الصغيرة الخاصة بجلسة شاي صحراوي، أضفى على النص بهاء وعكس لنا بعضاً من الطقوس التي تمتاز بها المنطقة، من خلال جلسة الشاي، مخدة الخملة أو مخدة الصوف المغزول، أكلة المخلع "الذي تعبق منه رائحة البصل، والتوابل (...). التوابل من الأكلات التي نتناولها فنشعر بالدفء والابتهاج"⁴⁹. وقد ورد ذكر "الدفء" ذلك أن هذا الطبق مناسب لفصل الشتاء، لأنه طبق دسم ولا يستحب أن يتم شرب الماء بعد تناوله مباشرة، وفي فصل الصيف سيزيد آكله عطشا ويكثر الطلب على الماء، ولهذا يتم تناوله بكثرة في فصل الشتاء والدفء لفضة جاءت لتزيدنا شعوراً بالحالة التي يكون عليها من تناول طبق "المخلع" فهي لم تقل مثلاً يزيدنا "انتعاشاً" بل قالت " دفناً" لما في هذا الطبق من سعرات حرارية تولد الدفء والابتهاج.

6- أصالة اللباس والفراش الصحراوي:

اللباس التقليدي هو ذلك الزي الشعبي التي تقوم المجتمعات بالمحافظة عليه والتشبث به وارتدائه في المناسبات الدينية كالأعياد، أو الاجتماعية وبالأخص في أعراسهم وأفراحهم. واللباس التقليدي كما الفراش التقليدي جزء لا يتجزأ من تراث كل منطقة ورمز من الرموز التي تعكس حضارتها على مر العصور.

ومن الألبسة الصحراوية ذكرت الكاتبة "ليزار، حولي، غناس" وهي ألبسة تقليدية تختص به المرأة الصحراوية فليزار هو قطعة القماش التي تلف الجسد ككل، والحولي والغناس يغطيان الجزء العلوي من جسم المرأة (الرأس والخصر)، تقول الخالة الياقوت "عن ابنها موسى: هو حَوْلِيَّةٌ وغَنَاسِي"⁵⁰، مشبهة ابنها موسى بالحولي وبالغناس الذي يغطيها ويستترها. وتضيف الخالة الياقوت "عن حلم رآته وهي تحمل موسى في بطنها، رأت فيما يرى النائم بأن والدتها ألبستها الغناس (...). الرؤيا كانت بشرى لها بإنجاب ذكر يكون سندا لها في الحياة، وأنجبت موسى"⁵¹. ما كان الغناس والحولي يفارقان الخالة الياقوت "كانت تلبس ليزار؛ لباسها الأصيل وتغطي رأسها بالغناس الذي نسجته بأناملها السمراء (...). كانت تضع على رأسها الغناس الأسود، وتربط حول خاصرتها حزاماً غليظاً من الصوف"⁵²، الأجل من ذلك اللباس هو أن النساء كنّ ينسجن تلك الملابس التقليدية بأيديهن ويتفنن فيه. فالخالة الياقوت هي من صنعت بأناملها السمراء ذاك الغناس.

ومن الملابس الرجالية ذكرت الروائية "الجلابة الصوفية"، يقول عنها فاتح بطل الرواية "موجة برد تلبستني احتجت إلى دفء الجلابة التي أهدتها لي والدي، لوها البني يحاكي الدفء في بيت جدي المتراكمة بقاياها في أطلال القصر. لبستها كأنني ألبس مدينة بكاملها.. الأيدي التي نسجتها لا تختلف عن الأيدي التي عجن طين طوب القصر"⁵³.

وكما اللباس التقليدي اختارت الكاتبة وصفا دقيقا للأفرشة التي طبعت المجتمع الصحراوي فكانت مزيجا من زرايبي ووسادات كلها من صنع نساء الصحراء وبالمادة الأساسية التي جادت بها المنطقة وهي الصوف الذي يتم غزله ليتحول إلى خيوط خملة، يقول فاتح: "كانت لا تزال تتناول الغذاء رفقة أمني وأخوي، يفتشون زريبة حمراء تتقاطع فيها خطوط سوداء في مزيج بعث الدفء في أوصالي الباردة"⁵⁴، وفي مواضع أخرى ورد ذكر أفرشة ووسائد مصنوعة من الخملة، كقول الروائية: " بقره خزانة عليها أواني نحاسية مصقولة، وترتفع إلى جانبها أفرشة الخملة تبعث الدفء في الزوايا"⁵⁵، " أجلس إلى جانب زوجها عمي عاشور الذي يتكى على مخدة الخملة"⁵⁶.

هكذا أثنت لنا جميلة طلباوي نص "الخاوية"، بكل ما له صلة بهذه البيئة من لغة ومسكن ولباس ومأكل وفراش...، جعلتنا نجوب معها شوارع بشار ونشم رائحة الطين بالقصور، نتعاطف مع فاتح ونتمنى نجاح مشروعه. بالرواية مجموعة من الأفكار والرؤى وتضارب بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة وسؤال ظل عالقا بالذهن: هل ستنجح المجتمعات الصحراوية في المحافظة على تراثها في ظل وفود حضارات جديدة لا علاقة لها بنظام القصور ولا بأخلاق ساكنيه؟.

الهوامش:

- 1 الخاوية، جميلة طلباوي، دار ANEP للنشر، الجزائر، 2014، ص: 20.
- 2 الخاوية، ص: 21.
- 3 الخاوية، ص: 82.
- 4 الخاوية، ص: 83.
- 5 الخاوية، ص: 203.
- 6 الخاوية، ص: 100.
- 7 الخاوية، ص: 131.
- 8 الخاوية، ص: 133.
- 9 الخاوية، ص: 132.
- 10 الخاوية، ص: 78.
- 11 العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة 01، 2012، ص: 16.
- 12 الخاوية، ص: 24.
- 13 الخاوية، ص: 26-27.
- 14 الخاوية، ص: 29.
- 15 الخاوية، ص: 11.
- 16 الخاوية، ص: 11.

- 17 الخائية، ص: 11.
18 الخائية، ص: 72.
19 الخائية، ص: 73.
20 الخائية، ص: 22.
21 الخائية، ص: 27.
22 الخائية، ص: 27.
23 الخائية، ص: 28.
24 الخائية، ص: 126.
25 الخائية، ص: 161.
26 الخائية، ص: 165.
27 الخائية، ص: 196.
28 الخائية، ص: 199.
29 بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن مجراوي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، سنة 1990.
30 الخائية، ص: 159.
31 الخائية، ص: 44.
32 الخائية، ص: 162.
33 الخائية، ص: 168.
34 بنية الشكل الروائي، حسن مجراوي، السابق، ص: 302.
35 عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر 2007، ص: 13.
36 ميخائيل باختين، شعرية دستيفسكي، ترجمة جميل نصيف، دار توبقال 1986، ص: 24.
37 د علي عبد الواحد وافي، اللغة و المجتمع، دار نهضة مصر للطبع و النشر، الفجالة-القاهرة، 1971، ص: 3.
38 الخائية، ص: 52.
39 الخائية، ص: 14.
40 الخائية، ص: 30.
41 الخائية، ص: 12.
42 الخائية، ص: 35.
43 الخائية، ص: 35.
44 الخائية، ص: 114.
45 الخائية، ص: 165.
46 الخائية، ص: 31.
47 الخائية، ص: 68.
48 الخائية، ص: 104.
49 الخائية، ص: 30.
50 الخائية، ص: 13.
51 الخائية، ص: 13.

52 الحابفة، ص: 11-12.

53 الحابفة، ص: 51.

54 الحابفة، ص: 47.

55 الحابفة، ص: 89.

56 الحابفة، ص: 31.